الفصل الرابع:

تلقي الجنون في منطقة المفاهيم

مدخل: منطقة المفاهيم.

توصيفات الجنون في المدونة الرسمية:

- المستوى الأول: العَرَض.
- المستوى الثاني: الاختلاف.
- المستوى الثالث: الحضور والغياب.

obeikandi.com

تتمثـل أهميـة **منطقـة المفاهيـم** في كونها: تقـدم مفهوم الجنون الرسـمي لسـائر المنتمين للثقافة، ومـن ثمَّ تحملهم عليـه، وتصنـع أفق النظر الـذي من خلاله تتناسـل طائفة مـن الممارسـات: إنتاجاً وتلقيـاً، وقبولاً وحظراً، وتشـكل ضغطاً هائلاً على المتلقي، وتوجه مسـتهلكي الثقافة إلى رد فعل واسـتجابة محددة سـلفاً؛ لذلك كانت إحدى وسائل السـلطة في تقنين الواقع، وإعادة إنتاج التاريخ ومراقبته في تحولاته وسـيرورته. ومن يمتلك وجهة النظر فإنه يمتلك حتماً نصاب الحقيقة...

الباحث

obeikandl.com

مدخل: منطقة المفاهيم

هنـاك منطقـة أخرى فاعلـة، يمكـن أن نتعرف مـن خلالها على التلقي العام للجنون في صورة واضحة وجلية، وهي منطقة **المفاهيم**، حيـث تمـارس الثقافة العالمـة حضورهـا المقنن/ المعقلـن من خلال العلـوم المختلفـة، في بناء الخطابات والمعرفة وتوزيعها واسـتهلاكها على نحو محدد.

فمنطقـة المفاهيم هي مـن جهة **تمثُّلٌ معـرفي للتجربة الحضارية/** النمـوذج الثقـافي المتجسِّـد، وهـي مـن جهـة ثانيـة تأسـيس **لزاوية النظر**[١]، وصياغة **لمسـافة الرؤيـة** الممكنة؛ فـ«المعرفـة بأسرها، هي: **منظوريّـة** من حيـث طبيعتها الجوهريّـة؛ أي: إنَّ الادّعاءات المعرفيّة

(١) زاويـة النظـر/ وجهـة النظـر: موقـع نوعـي، أو منهج لأخـذ الأشـياء في الاعتبار وتقويمهـا، ويصـدر عنه موقـف أو حكم أو رأي، أو هو: الموقف الفلسـفي الذي يتخـذه مؤلِّـف أثر أدبي، أو نظرته الفكرية والعاطفية إلى الأمور عامَّة، كما يُراد بهذا المصطلح في الرواية أو القصة بصفة خاصة ذلك الوجدان أو العقل الذي تَرشَحُ من خِلاله أحداث القصص حتى يدركها القارئ. يُنظَرُ: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجـم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط٢، ت١٩٨٤م (ص٤٣٠-٤٣١)، وإبراهيـم فتحـي، معجـم المصطلحـات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس - صفاقس (ص١٩٥).

وتقديراتهـا تحـدث دائـماً في داخـل إطـار يوفـر المصـادر المفهوميّة، ويُوصَفُ العالمُ من خلاله ويُفسَّر»[١].

وهـذه المنطقـة (أي: منطقـة المفاهيـم) أكثـر خضوعـاً للتوجيه والهيمنة- بصفتها اختياراً تاريخيّاً نسبيّاً- من منطقة اللغة؛ التي تظل مفتوحة عـلى **المكوِّن الثقافي** بما فيه من تعددية وتراكم ووعي نوعي، وأقدر على التمدد والتوغل في سياقات زمنية ومكانية ومعرفية متعددة ومتجدِّدة. لذلك كتب فوكو عام ١٩٧١م **يصف المعرفة**؛ فقال: «إنّ المعرفة لم تخلق لأجل الفهم؛ وإنما لأجل التكسير والحسم»[٢]؛ «مبيناً بذلك وهميّة الحياد المعرفي، ومشيراً إلى قصور الموقف الفينمنولوجي الساعي إلى إضاءة بنى الوجود لكشف معناها. ففي المعرفة تتصارع أهواء ورغبات ومصالـح، وعلاقات قوى، فليس مرمى المعرفة هو البحث عن معنى خفي، وذات متسـيِّدة، وعن وتيرة تطوّر مسـتمر، وعـن تجل تدريجي لحقيقة كائنة في المسـتقبل، أو تراجعاً نحو حقيقة كائنة في أصلٍ منسي»[٣].

لكـن المفاهيـم بصفتها (أجهـزة): قادرة على تمثـل نمط الانتظام المعـرفي في الثقافة العالمـة، وإعادة إنتاجه في عبـارة موجهة ودالة. كما

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي (ص٤٠).

(٢) ميشـال فوكو، نيتشـة: الجنيالوجيا والتاريخ، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء (ص٦٣).

(٣) د. عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو: المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٤هـ-١٩٩٤م (ص٣٢-٣٣).

تمتاز بقدرتها على اختزال الظواهر المختلفة وتأويلها، ونقلها من **المستوى المثالي**(١) إلى مستوى الرموز، ومنحها القيمة والدلالة المعتبرة. وعلى الرغم مما يؤكده المشتغلون بالإيديولوجيات الكبرى في التاريخ كالماركسية(٢)؛ من أنّ المفاهيم تغتني وتتطوّر من داخل الثقافة نفسها، إلا أنَّ وظيفتها الكبرى تبقى في العمل على انتقاء الأشياء، من وجهة نظر الممارسة والمعرفة.

ومن ثمّ كانت المفاهيم إحدى الوسائل الفاعلة في: **شرعنة الهيمنة الثقافية**، ومنحها القبول والفاعلية؛ فالسلط لا تستمد فاعليتها وقوتها من قدرتها على التأثير فحسب؛ بل تستمدهما من: منطقها الداخلي، وتماسكها واطرادها، ومن التسليم بها، واستعداد المتلقي للرضوخ لها. وهذا ما ينسجم مع ما كان قد طرحه قرامشي عن نظرية السلطة، التي ذهب فيها إلى «أنّ السيطرة لا تتم بسبب قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضاً تتمكن منا بسبب قدرتها على

---

(١) كلّ ثقافة مثالية؛ لكن يكون شكلها ماديّاً ومدركاً في هيئة: عادات ومعارف وصناعات ولغة وصيغ ولوازم لفظية، إذ توجد الثقافة في نظام من العلامات تشير إلى أشياء وأفعال وقوانين وممارسات. وهي تبدو في المؤسسات، وجهود العلماء، والمصطلحات والتآليف العامة في العلوم والمعارف الشائعة، والاعتبارات العرفية والاجتماعية، التي تحكم الخطابات والممارسات؛ فالثقافة تظهر من خلال المفاهيم والعلامات، والذوات التي ترعى تلك الأفكار والمفاهيم وتعيد إنتاجها.

(٢) ينظر: م. روزنتال وب. يودين، الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، لبنان - بيروت، ط٣، ت١٩٨١م (ص٤٨٨).

جعلنا نقبل بها ونسلم بوجاهتها»[١].

وبالنسبة لنا هنا فتتمثل أهمية **منطقة المفاهيم** في كونها: تقدم مفهوم الجنون الرسمي لسائر المنتمين للثقافة، ومن ثَمَّ تحملهم عليه، وتصنع أفق النظر الذي من خلاله تتناسل طائفة من الممارسات: إنتاجاً وتلقياً، وقبولاً وحظراً، وتشكل ضغطاً هائلاً على المتلقي، وتوجه مستهلكي الثقافة إلى **رد فعل واستجابة محددة سلفاً**؛ لذلك كانت إحدى وسائل السلطة في تقنين الواقع، وإعادة إنتاج التاريخ ومراقبته في تحولاته وسيرورته. ومن يمتلك «**وجهة النظر**» فإنه يمتلك حتماً نصاب الحقيقة...

ولما لـ«**منطقة المفاهيم**» من أثر كبير وفاعل في تكوين صورة الجنون عند مستهلكي الثقافة ومنتجيها رأيت أهمية أن نقف عليها في الصفحات القادمة ونتأملها، ولنستقي منها التصور المؤسسي للجنون، الذي سيكون هو التصور الأساس والفاعل في الممارسات الثقافية العالمة.

***

(١) د. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان - بيروت/ المغرب - الدار البيضاء، ط١، ت٢٠٠٠م (ص١٨).

توصيف الجنون في المدوّنات الرسمية

نجد أنفسنا في هذا الجانب، أمام أكثر من توصيف رائج تطرحه المؤلفات أو الرموز الثقافيون، **تختزل الرؤية المؤسسية** للجنون، ويمكن أن نضعها في **ثلاثة مستويات بينها اتصال**. وهذه المستويات الثلاثة: يكمل بعضها بعضاً، ويفصح بعضها عمّا يلمح إليه الآخر، ويتأسس بعضها على بعض؛ مما يجعلها تبدو كأنها تقدم **هذا الفهم الإبستمولوجي** بطريقة **المقدمات والنتائج**:

المستوى الأول: العرض:

يوصف الجنون بأنه: «**عارض يغمر العقل**»[1]، أو أنه: «**الذي يغطِّي العقل**»[2]. والمجنون هو «**المغطَّى العقل**»[3].

(١) جلال الدين السيوطي، معجم مقاليد العلوم، تحقيق: أ.د محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م (ص٢٠٣)، مصطلح رقم (١٦٨٠)، ومحمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٥٣١-٥٣٢).

(٢) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٢٢) مادة (ج.ن.ن)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٢٦/ ٥٨) مادة (ط.ب.ق).

(٣) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل=

في هـذا المستوى يُتلقـى الجنـون بصفتـه: **(عرضـاً)**، والعقـل **(أصـلاً)**. «والعرض هـو: الذي يعـرض ولا يصح بقـاؤه...، يدل عـلى ذلـك قولهم: عـرض لفلان عـارض من مـرض وصـداع؛ إذا قـرب زواله ولم يُعتقد دوامه. ومنه قوله عز وجل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكل شيء قرب عدمـه وزواله موصوف بذلك»[١]، ولذلك قيل للدنيا: «عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر»[٢].

ومن ثمَّ فإن التوصيف السابق للجنون يصدر عن وعي بالجنون، ويؤسـس أيضـاً لطائفـة مـن المفاهيم، التـي تنعكس عـلى تلقيه؛ بل تكوّنه. هذه المفاهيم يمكن التنبيه عليها من خلال الوقفات التالية:

- العقل هو الأصل، وهو الأسبق.
- الجنون طارئ على الحياة، وعلى التجربة البشرية.
- كما أن التعبير **بالعرض** يحتوي على إشارات خفية تمرر وصف الجنون من خلال **تصنيفه**:

= إبراهيـم، دار الفكر العربي، مصر - القاهـرة، ط٣، ت١٤١٧هـ-١٩٩٧م (١/ ١٧٦).

(١) أبـو بكـر الباقـلاني، الإنصـاف فيما يجـب اعتقـاده ولا يجـوز الجهل بـه، تحقيق: محمـد زاهـد الكوثري، المكتبـة الأزهرية للـتراث، ط٣، ت١٤٢١هـ-٢٠٠٠م (ص١٦-١٧).

(٢) يعقوب بن السـكيت، إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد شـاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط٤، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م (ص٧٢).

- بأنه «حائل بين النفس والعقل»[١]؛ يمنع من **التَّعقل**[٢]، وليس مزيلاً للعقل بالكلية!
- العمل على إزالة هذا العارض ومداواته متوقعة؛ لأن العارِض «يقبل العلاج»[٣] أو الإزالة.
- وأنه غير مكتسب ولا مقصود إليه، بل جاء على نحو مجهول! ومن حيث لا يُعلم ولا يُدرى من أين أتى، لذا تقولُ العرب: «أصابه سهم عرض، إذا جاءه من حيث لا يُدرى من رماه»[٤] قال يعقوب بن السكيت: في قول الشاعر: «عُلِّقتها عرضاً»، أي: كانت عَرَضاً من الأعراض اعترضَني من غير أن أطلبه[٥]. فالجنون إذن: طارئ؛ غير مكتسب، مانع من عمل العقل.
- وكون الجنون عرضاً لا أصلاً، وعارضاً لا دائماً؛ يجعله مستبعداً عن أن يكون **خياراً لما هو قائم**، أو ما يراد له

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن (ص٩٩).
(٢) قال محمد الأزهري: «كلُّ مانع منعَكَ من شُغل وغيره من الأمراض فهو عارضٌ، وقد عَرَضَ عارضٌ، أي: حال حائلٌ، ومنع مانع»، «وقال اللِّحياني: العَرَض: ما عَرَضَ للإنسان من أمرٍ يحبِسُه، من مرضٍ أو لُصوص». تهذيب اللغة (١/ ٢٨٨-٢٩٢)، مادة (ع.ر.ض).
(٣) - تقي الدين السبكي، إبراز الحكم من حديث رفع القلم، حققه وخرج أحاديثه: كيلاني محمد خليفة، دار البشائر الإسلامية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٢هـ-١٩٩٢م (ص٩٨).
(٤) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٨٠)، مادة (ع.ر.ض).
(٥) ينظر: محمد الأزهري، تهذيب اللغة (١/ ٤٥٦).

الاستمرار. لكنه في أحسن الحالات- يستدعي الاعتراف به على هذه الصفة في خانة النقص العارض؛ وعلاقته بالعقل تستدعي إلى الذهن علاقة أخرى وثيقة الصلة به في منظومتي القيم والمعارف، وهي: علاقة **الباطل بالحق**. فالجنون شيءٌ من جنس الباطل؛ لاشتراكه معه في صفة مركزية مهمة، تجعله غير مؤهل للقبول والاعتماد عليه، وهي **سرعة الزوال**، أو القابلية للزوال الوشيك بإزاء ما هو ثابت وباق ومحكم.

قال ابن فارس: «الباء والطاء واللام أصل واحد، وهو ذهاب الشيء، وقلة مكثه ولبثه، يقال: بطل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً. وسُمي «الشيطان» الباطل لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له، ولا معول عليه»[(١)].

وكل ما لا ثبات له من القول والفِعل عند الفحص عنه فهو باطل[(٢)]. ونقيضه الحق. والحقّ يستدعي العقل؛ لأنه من جنسه، كما استدعى الباطل الجنون لأنه من جنسه، فالحقّ: «يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج، وحسن التلفيق»[(٣)].

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (١/ ٢٥٨)، مادة (ب.ط.ل).

(٢) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص٥٠)، ومحمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمّات التعاريف، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، مصر - القاهرة، ط١، ت١٤١٠هـ-١٩٩٠م (ص٧٠).

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٥)، مادة (ح.ق.ق).

وكل فعـل أو قـول صدر بحسـب ما يجـب، في الوقت الذي يجب، بالكيف الذي يجب، فهو حق[١]...

- هذا الفهم يستدعي من المجتمع تجاه المصاب بالجنون المساعدة والمسامحة. ولكن في الوقت ذاته يتم تصنيف الجنون وما ينتج عنـه ضمـن دائرة الزائـل= الباطـل، ومن ثمّ فـلا يلتفت إليه ولا يعتـد به، أو بعبارة ابن فـارس «لا مرجوع له، ولا معوّل عليه»[٢].
- العـارض يشـمل مـا كان حقيقيـاً أو حكميّاً (ثقافيّـاً) بحيث يحـول بـين العقل وبـين أداء وظائفه؛ فالمخمـور، والغضبان، والغيران، والشـهوان، والمدهوش، والخائـف، والمضطرب، والعاشـق، والمنشـغل بشيء أو المتعلق به، المنخلـع مما حوله، والخـارج عـلى سـمت مجتمعه ومـا يألفونـه، يصـح فيه -من الموقع المؤسـسي- أن يوصف بالجنـون، لوقوع العرض الذي يغمـر العقل ويغطيه، أو الحائل الذي يحول دونه، ولو لم يكن الموصوف به عليلاً على الحقيقة!

وفي المسـتوى الثـاني يتحـدد معنى «غمـر العقـل» أو «تغطيته»، وذلك من خلال سياق المخالفة لأفعال العقلاء.

(١) ينظـر: الراغـب الأصفهـاني، المفـردات في غريـب القـرآن (ص١٢٥)، مـادة (ح.ق.ق).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٥٨)، مادة (ب.ط.ل).

المستوى الثاني: الاختلاف:

في هذا المستوى الثاني يوصف الجنون؛ بأنه:

- «**اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادرا**»[(١)].
- «**ذهاب العقل لآفة، ومظهره جريان التصرفات القولية والفعلية على غير نهج العقلاء**»[(٢)].
- «**اختلاط العقل بحيث يمنع وقوع الأفعال والأقوال على النهج المستقيم إلا نادرا**»[(٣)].

فهذه التعريفات تصنف الجنون؛ بأنّه: آفة، واختلال، واختلاط: يغيّب العقل/ يمنع العقل/ يذهب به. وبما أن العقل كما أسلفنا

(١) علي الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: غوستاف فلوجل، مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط١، ت١٩٨٥م (ص٨٢-٨٣)، والقاضي عبد النبي نكري، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٢١هـ-٢٠٠٠م (١/ ٢٨٢). وعبيد الله الحنفي، شرح التلويح على التوضيح في أصول الفقه، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١. ت١٤١٦هـ-١٩٩٦م (٢/ ٣٤٨). وسعد الدين التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، مطبعة محمد علي صبح، مصر - القاهرة، ب.ط.ت. (٢/ ١٦٧).

(٢) زين الدين بن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر - القاهرة، ط١، ت١٢٥٥هـ-١٩٣٦م (٢/ ٨٥).

(٣) محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمّات التعاريف (ص١٣١).

نظام، فـإن الجنون مانعٌ من اسـتقامة التصرفات عـلى ذلك النظام/ النهج القويم= المسلّم به.

والعقل نهج واحد- كما تذكر التوصيفات- يجمع عليه المجتمع؛ لأنـه اختيـار ثابـت ومحكـم ومتطابـق؛ قريـن للحـق «لدورانه على استقامة»-كما يقول الراغب الأصفهاني[1]- والجنون متعدد ومبهرج كالباطـل؛ فـ«إن الحق واحـد، والباطل كثير بل الحـق بالإضافة إلى الباطـل كالنقطـة بالإضافـة إلى سـائر أجـزاء الدائـرة وكالمرمى من الهـدف»[2]. وهي صورة تكشـف عن العلاقة بين الجنـون والعقل، وبين الهامش والمتن، والبؤرة والمجال.. وتبين نسـبة أحدهما للآخر؛ فالعلاقة بينهما علاقة النقطة بالدّائرة، والمرمى بالهدف!

لكـنَّ هـذه العلاقـة لا تـأتي من زاويـة **النسـبية والاختيـار**- كما تظهـر للمتأمّل- بل تأتي منحازة من خـلال أداة «**الإكراه**» الخطابي، وامتلاك «**الحقيقة**» المعرفية والأخلاقية، لذلك ترتبط بالحق والباطل كجهاز قيمي أخلاقي ومعرفي؛ ومن ثم فليس كل الدائرة تصلح أن تكـون موقعاً للنقطة، ولا كل الهدف يصلح أن يكون محلاًّ للمرمى. وكل مـا في الأمـر أن الانحيـاز وقـع إلى اختيار موضـع النقطة؛ كما كان الانحيـاز إلى اختيـار موقع المرمى من الهـدف، وبذلك لا تكون

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص١٢٥).

(٢) المفـردات في غريـب القـرآن (ص١٢٢)، وينظـر: الفيروزآبـادي، بصائـر ذوي التمييـز في لطائـف الكتـاب العزيـز، تحقيـق: محمـد عـلي النجـار وعبد العليـم الطحاوي، المكتبة العلمية، لبنان - بيروت، د. ط.ت (٢/ ١٢٩، ٤٧٣).

العلاقة هنا هي علاقة **الممكن بالمتحقق**، والخيارات الثقافية الواسعة والمتعددة بالانحياز الضيق والمحدود. بل على عكس ذلك هي علاقة محدّدة ومعيَّنة، ومن ثم فهي ليست ملكاً للتجربة الفرديّة، ولا للحظة الزمنيّة؛ بل هي (أي: العلاقة) ملك **للجماعة** التي تملك حق الاختيار، وتعطي الأشياء قيمتها، ولذلك كان مجنوناً كل: «من **لم يستقم كلامه وأفعاله**»[1]، على «**نهج العقلاء**» في أقوالهم وأفعالهم، بغض النظر عن **حقيقة** هذه التصرفات أو قيمتها **الموضوعية**[2].

للعقل نهجٌ، أي: طريق مسلوك بيّن محفوظ متوقّع؛ يخالفه الجنون وينحرف عنه. وكأن الجنون بهذا لا حقيقة له في ذاته، ولكن حقيقته تأتي من خارجه، أي من مخالفته لعالم العقلاء وأفعالهم، وأنه يحتكم في ذلك لما **وضح واشتهر** من الخبرة والتجربة؛ فـ«**النهج**»؛ بما هو: طريق عامر[3]، مذلل واضح[4]، لا يكون إلا بكثرة الطَّرق، واعتياد

(١) علي الجرجاني، كتاب التعريفات (ص٢١٦).

(٢) المراد بالموضوعية هنا: الحقيقة والواقع كما هو، أو كما يبدو بمعزل عن أحكام الإنسان وأفكاره ومشاعره، ينظر: إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية (ص٣٥٩)، ود. جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٤م (ص٤٥٦)، مصطلح برقم (١٩٦).

(٣) ينظر: القاسم بن سلام، غريب الحديث، تحقيق: د. حسين شرف، مراجعة: عبد السلام هارون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر - القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م (٤/ ١٧٥)، مادة (ن.هـ.ج).

(٤) ينظر: إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٤٦)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٦/ ٢٥١) مادة (ن.هـ.ج).

الارتياد، وبذلك يكون الوضوح، ويتحقق الإشهار. ويقصد به: الوجه الواضح الذي جرت عليه ممارسة الناس[١]، وفي هذا الفهم: تقريرٌ للتعريفين السابقين في المستوى الأول، حيث قدما الجنون بصفته عَرَضاً، و«العرض: ما لا يقوم بذاته بل بغيره»[٢].

والتعريفات جميعها في الحزمة تحتكم في تحديد الجنون والحكم به إلى معيار واحد، وهو بحسب ما تنص عليه: نهج العقل/ نهج العقلاء، لأنه النهج المستقيم- كما وصفه المناوي[٣]- فتحديد الاستقامة: الصواب/ الخطأ، والفضيلة/ الرذيلة، والمقبول/ المستهجن، من اختصاصات العقل؛ فلا معنى للاستقامة إلا به.. و«كل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل»[٤]. ومن ثَمَّ وصف الجنون بأنه «اختلال القوة المميزة بين الأمور الحسنة والقبيحة، المدركة للعواقب بأن تظهر آثارها وتتعطل أفعالها، إما لنقصان جبل عليه دماغه في أصل الخلقة، وإما لخروج مزاج الدماغ

(١) ينظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص٩١٣).

(٢) زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية - دبي، ط١، ت١٤١١هـ-١٩٩١م (ص٧١)، وأبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص٦٢٦).

(٣) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص٢٥٦).

(٤) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق: فيلب حتي، د. ف.، مكتبة الثقافة الدينية، مصر - القاهرة، ط١، د. ت (ص٨٥).

عن الاعتدال بسبب خلط وآفة، وإما لاستيلاء الشيطان عليه، وإلقاء الخيالات الفاسدة إليه، بحيث يفرح ويفزع من غير ما يصلح سبباً»[١].

والتعبير **بنهج العقلاء** أو **نهج العقل** يقتضي الاعتراف نظريّاً بـ: **وجود أكثر من نهج**، وأن المعيار المعتمد هو النهج **(المختار) المذلل المعروف** (= الطريقة المشتهرة - السائدة)، فهو يحصر العقل في نهج واحد وطريقة واحدة، هي الطريقة السائدة والمستمرأة، ويضبطها كثرة الطرق المستلزم للوضوح والظهور، وليس للجنون حقيقة ثابتة بل يتمثل في مخالفة ذلك النهج بكيفيات غير محددة ولا معتادة.

وهذا يعني أن العقل يتمثل في: المشاهد والواضح والممارس (الظاهر - المشهور - السائد)، والجنون يأتي من كونه نزوعاً إلى غير الواضح، وغير الظاهر، وغير الثابت وغير المطروق (الخفي - المغاير)، ما يجعل من تحديد **هويته**[٢] بالرجوع إليه في ذاته غير مجدٍ. وهذا يدل على أن الجنون يتحدد من خلال التجربة الاجتماعية والثقافية، أو بلغة أكثر تعقيداً من خلال **سياقات السلطة الفاعلة في المجتمع والثقافة** خلال مرحلة/ مراحل من التاريخ، التي تسعى

(١) أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص٣٤٩).

(٢) الهوية: حقيقة الشيء، التي تميزه عن غيره، وتحقق له وحدة تجمع الأشباه وتنفي المختلف، لذلك «تسمى أيضاً وحدة الذّات». مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي (ص٢٠٨)، المصطلح رقم ١٠٨٤).

لتعميم **النماذج** وتحقيق الانسجام والتشابه؛ لأنه لا يوجد موقع آخر يملك الحق في الحديث عن الجنون ووصفه. وهنا يتأكد مرة ثانية مسألة أسبقية «**العقل**» على تجربة الجنون، وامتلاكه الحق في دفع الوجود المختلف إلى الجنون. ولذلك يأتي تعريف الجنون -هنا في هذه التعريفات جميعاً- من الثابت فيه، وهو: «**مخالفته**» **السائد**.

المستوى الثالث: الحضور والغياب:

تفصح التوصيفات في هذا المستوى عن دلالات المفاهيم السابقة، وتأتي بصفتها نتيجة لها، أو نتيجة للفهم الذي صدرت عنه! وهو ما تعبر عنه بعض المدونات حين تعرف الجنون بأنه:

- «**زوال الشعور من القلب مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء**»[1].
- «**زوال الاستشعار من القلب مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء**»[2].

---

(١) شمس الدين الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٤هـ-١٩٩٣م (٦/ ٣٨١)، ومحمد الغمراوي، السراج الوهاج على متن المنهاج، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، د. ط، د. ت (١/ ٣٨١)، ومحمد الشربيني، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، دار الفكر، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٥هـ-١٩٩٥م (٢/ ٤٢٠)، وينظر: زكريا الأنصاري، فتح الوهاب شرح منهج الطلاب، دار الفكر، لبنان - بيروت، د. ط.ت (٤/ ٢١٣).

(٢) محيي الدين النووي، كتاب المجموع شرح المهذب للشيرازي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، السعودية - جدّة، ط١، ت١٤٠٠هـ-١٩٨٠م (٢/ ٢٥).

obeikandi.com

ويُقصد بزوال الاستشعار أو الشعور غياب الإدراك[١]. وغياب الإدراك يعني أن المجنون عاجز عن **إنشاء التواصل مع محيطه**، فهو منبت عنه. فالمجنون رهن لعالمه ومعتقداته، غائب عما حوله، عاجز عن التواصل معه والإحساس به، ولذلك كان المجنون في **عماية دائمة**، لانفصال أدوات الاستشعار لديه عن عملية الإدراك.

والتوصيف في هذا المستوى **يكشف عن تموضع الجنون**؛ إذ يقدم الجنون من خلال إشكال: الوجود والعدم - الحضور والغيبة، فهو حاضر وهو في الوقت ذاته غائب! وهو موجود وهو في الوقت نفسه معدوم! وهذا الحضور: مادي مجرد من الاستشعار والمعرفة. وهذا الحضور الجسدي ليس حضوراً ضعيفاً، بل حضورٌ صاحبُ موصوف بالحركة وبالقوة، أي: تجسد حقيقيٌّ للجسد المادي وللأعضاء، لكن مع انتفاء أثرها ونفعها.

والحضور الجسدي دون شعور/ إدراك سيكون حضوراً ناقصاً: يتصف بالعجز، وبالتمزق و«**الانفصام**»[٢] بينه وبين الواقع من

(١) أبو بكر الدمياطي، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٨هـ-١٩٩٧م (٣/ ٣٨٢). وقال: «وقوله: يزول به الشعور، أي: الإدراك من القلب، لكن مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء».

(٢) الفصام - الانفصام: أحد الأمراض العقلية الرئيسية، ومظهره: اضطرابات في موقف الشخص إزاء الواقع، وانفصال بين النواحي العقلية من الشخصية والوجدانية فيها، ولذلك يوصف بأنه: مرض انقسام العقل، وهو أنواع منه ما هو «سلبي» يميل المريض المصاب به للعزلة واللامبالاة، ومنه ما هو «إيجابي»=

جهـة، وبينه وبين بعضـه بعضاً من جهة أخرى، وسـيكون حضوراً صادماً ومخالفاً مزعجاً، ومنقطعاً عمّا حوله.. ولذا تسعى المجتمعات إلى السـيطرة عـلى ذلك الحضور الناتئ وإخضاعه، بكل السُّـبل ولو بالقيد، وفرض الإقامة الجبرية على المجنون في المارستان/ السجن.

إنّ **الشعور** في عرف الثقافة العربية، هو **الحدّ الأدنى** من القدرات العقلية والمعرفية، وإذا وصف الإنسـان بأنه **لا شـعور له** فإنه يكون حينئذٍ قد انحط إلى رتبة الحيوان، لأنه بانعدام الشـعور تنعدم القدرة على التفكير.

و«ليس في الأحياء إلا ما هو شـاعر؛ فكل حيّ له شعور بحسبه، وكلّـما **قويت الحياة قوي شـعورها**»[1]. فالإنسـان والحيـوان مطلقاً موصوفان بأنهما كائنات ذات شعور؛ لكن يمتاز الإنسان بأنه تصدر عنـه حركاتٌ ثلاث: فكرية وقولية وفعليـة. والحيوان لا تصدر عنه إلا حركـة فعلية مكانية؛ عن طلب منه وعن شـعور بحسـبه، ولكن تنتفي عنده: الحركة الفكرية، والحركة القولية، وتبقى الحركة الفعلية المكانيـة. وأمـا النبات فإنـه لا يوصف بالعلم ولا بالشـعور؛ لأنه لا

= يميـل معـه المريض إلى الهياج والصياح، وتعتريه الهـلاوس. ينظر: مجمع اللغة العربيـة بالقاهـرة، معجـم علـم النفـس والتربية، الهيئـة العامة لشـؤون المطابع الأميريـة، مصر - القاهـرة، ط١، ت١٩٨٨م (١/ ٩٤)، د. لطفـي الشربينـي، مراجعة: د. عادل صاق، معجم مصطلحات الطب النفسي (ص١٦٤).

(١) أحمد بن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسـيح، تحقيق: د. علي بن حسـن ابـن ناصر وآخرين، دار العاصمة للنشر والتوزيع، السـعودية - الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م (٣/ ٢١٣).

إرادة لـه فحركتـه عـن غير طلـب منـه[١]، فانعدام الشـعور هو -في حقيقة- الأمر انعدام لمعنى الحياة!

ولذلك عدّ أبو هلال العسـكري: «الذمّ للإنسـان بأنه: لا يشعر أشـد مبالغـة مـن ذمه بأنـه لا يعلـم؛ لأنه إذا قـال: لا يشـعر؛ فكأنه أخرجـه إلى معنى الحمار؟! وكأنه قـال: لا يعلم من وجه واضح ولا خفيّ. وهو كقولك: لا يحس، وهذا قول من يقول: إنّ الشـعور هو أن يـدرك بالمشـاعر. وهي: الحواس، كما أن الإحسـاس هو الإدراك بالحاسة»[٢].

فالمشـاعر هـي: البوابـة الموضوعيـة الأولى لـلإدراك، ولكن لا يترتـب عـلى الاستشـعار (الإدراك بالمشـاعر) تحقق العمـل العقلي، ولذلك قيل إنّ: «**القوةَ النَّاطقة**[٣] لا تدخل تحت المشاعر إلا بضربٍ من التَّكلف»[٤].

(١) ينظـر: الإمام محمد الغزالي: معارج القدس في مـدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، لبنان - بيروت، ط٢، ١٩٧٥م (ص٣٨).

(٢) أبو هلال العسكري: الفروق (ص٨١-٨٢).

(٣) القوة الناطقة يراد بها: القوة التي يعقل بها الإنسان، وتكون بها رويّته، وبها يقتني العلـوم والصناعـات، ويميـز بين الجميـل والقبيـح. (ينظر: أبو نـصر الفارابي، فصـول منتزعة، جمع وتحقيق: فوزي النجار، دار المشرق، لبنان - بيروت، ط١، ت١٣٩٠هـ-١٩٧١م (ص٢٩).

(٤) أبـو البقـاء الكفوي، الكليات معجـم في المصطلحات والفـروق اللغوية، تحقيق عدنـان درويـش ومحمـد المـصري، مؤسسـة الرسـالة، لبنان - بـيروت، ط، ت١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م (ص٥٣٧).

في هـذا المستوى تنتقـل التوصيفـات إلى دائـرة **القيمـة** بصورة قاطعة أكثر من الوصف المحايد! ونقصد **بالانتقال إلى القيمة**: تحول توصيـف الجنون مـن «التحديـد» و«التعيين» إلى إرسـال الأحكام، التي تجعل من فعل الشيء أو من عدمه **قيمة فاعلة** في السلوك.

فالقيمة: طريقة في الوجود! أو في السلوك، تعترف بها جماعة على أنها مثال يحتذى، وتجعل الأفراد، الذين تُنسَـب إليهم مرغوباً فيهم، أو شـأنهم مقدر خير تقدير[١]. وبذلـك تكوّن في نهاية المطاف **علامةً مائزة**، قادرة على إنتاج **الدلالة الثقافية**.

إنَّ التوصيفـات السـابقة تعـين القيمـة وتوجـه إليهـا، والقيمة تتمثل في: «الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعـات أو الأشـياء. وذلـك في ضـوء تقييمـه أو تقديره لهذه الموضوعـات أو الأشـياء. وتتم هذه العملية مـن خلال التفاعل بين الفـرد بمعارفه وخبراتـه، وبين ممثلي الإطار الحضـاري الذي يعيش فيه، ويكتسب من خلاله هذه الخبرات والمعارف»[٢].

وبما أن القيمة سـمات أخلاقية تتحدد ثقافيـا بأنها مرغوبٌ فيها، فهي تشكل حقائق أساسية في البناء الاجتماعي، ومبادئ مجردة وعامة

(١) ينظر: د. مليحة عوني الصغير ود. معن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، مطبعة جامعة بغداد، العراق - بغداد، ط١، ت١٤٠١هـ-١٩٨١م (ص٩٣).

(٢) د. عبد اللطيـف محمد خليفة، ارتقاء القيم: دراسـة نفسـية، سلسـلة عالم المعرفة برقـم (١٦٠)، المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، الكويـت، ط١، ١٩٩٢م (ص٥٩).

للسلوك يشعر أعضاء الجماعة نحوها بالارتباط الانفعالي القوي، كما يوفر لهم مستوى للحكم على الأفعال والأهداف خاصة[١]...

والقيمة تندرج ضمن المعتقدات التي يصعب تفكيكها؛ ولذلك تتسم بقدر من الاستقرار النسبي، وتمثل موجهات للأشخاص نحو غايات أو وسائل لتحقيقها، أو أنماط سلوكية يختارونها ويفضلونها، وتفصح عن نفسها في: المواقف، والاتجاهات، والسلوك اللفظي، والسلوك الفعلي، والعواطف، التي يكونها الأفراد نحو موضوعات معينة[٢]، وبذلك تتكوّن لها (**سلطة**) خاصة داخلية (**وازع ذاتي**) موجه للأفراد، وباعث على فعل السلوك أو الامتناع عنه دون الحاجة إلى العنف الخارجي.

إنّ نفي القدرة على الاستشعار أو الشعور عن المجنون، مع إثبات القوة والحركة للأعضاء؛ **يقرر الإشكالية الكبرى** لوجود الجنون في **الثقافة العالِمة**، كما يقرر **عبقرية الثقافة** -كناجز حضاري- في تعاملها مع أشكال الشذوذ المختلفة (= الجنون)، وقدرتها على اختزال هويته إلى قالب (=حيلة) الـ(الحضور- الغياب)، فحضوره مادي: عضوي- فيزيائي يوصف بالقوة والحركة، ولكنه على صعيد

(١) ينظر: د. مصلح الصالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، السعوديّة - الرياض، ط١، ت١٤٢٠هـ-١٩٩٠م (ص٥٨١).

(٢) ينظر: محمد علي محمد وغريب سيد أحمد وعلي عبد الرزاق حلبي، المجتمع والثقافة الشخصية، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، المعرفة الجامعية، مصر - الإسكندرية، ط١، ١٩٨٣م (ص٣٥٦).

القدرة على الإدراك (الشعور- الاستشعار) وإنتاج المعنى والفكرة والنطق غائب؛ إذ كيف يكون حاضراً من لا نور له ولا شعور؟!

إنّ تنكب الأفراد للمنهج الواضح (المعياري- الاجتماعي) حالة **ثقافية واقعة** لا يمكن تغييبها! لكن يمكن **الالتفاف الثقافي** المؤسسي عليها، لتكون هذه الواقعة الثقافية **ضلالة دون هدى ولا أثر** (= دون خطاب)، **وليكون الحضور الصاخب لها حضوراً جسديّاً** يفقد الحد الأدنى من المعرفة والخبرة؛ لأنه يغيب عنه الحد الأدنى من الاستشعار! ومن ثم فهو: **حضور كالغياب لا معنى له، ولا خوف منه على الأنساق الثقافية المهيمنة**، وهذا ما يظهر أشد الظهور في السياقات السياسية خاصةً، وفي لحظات الاصطدام الثقافية والتاريخية الكبرى، التي تشهد تحولات شديدة في الأنظمة والنماذج، أو تنتهي إلى قطيعة معرفية كبيرة بين مرحلتين (ما قبل) (وما بعد) وسنقف بعون الله تعالى على نماذج من ذلك في معالجات قادمة[1].

١. الجنون وجود ولكنه لا ينتمي للوجود الواعي، لأنه وجود يفتقر إلى القدرة على المعرفة. وهو لذلك يخالف معنى «الوجود الثقافي/ الاجتماعي» الذي يحترم مكتسباته، ويراكم تجاربه، ويسترفد خبراته.

---

(١) نعرض لذلك في الحلقة البحثيّة الثانية من هذه السلسلة، وسيكون ذلك في مطلع الجزء الثاني بمشيئة الله.

٢. الجنون حضور مجزّأ (**فصامي**)[١] تنفصم فيه عرى التواصل بين القلب والعقل، وبين المشاعر والحواس، وبين الإدراك والتعبير، وبين صور الوجود وتمثلها، وبين المعرفة العامة والتجربة الخاصة، ولذلك فهو- بالضرورة- محفوف بالتشظي والتمزق بين الحضور والغياب..

٣. الجنون وجود يتمتع بالحركة والقوة، لكنه وجود ناشز، لا يخضع للنظام؛ فالقوة في الجسد مع غياب القدرة على الرؤية والاستشعار، تعنى الارتياب والإزعاج والمروق والمرادة.

٤. هذا الفهم -أيضاً- على الرغم من دقته ووضوح ما يقول- واسع يستغرق كل الصور الثقافية[٢] أو العيادية[٣] للجنون.

(١) يُراجع تعريف الفصام في هذا الكتاب (ص٢٠٦)، الهامش رقم (٢).
(٢) الجنون كما قدّمناه في بعده الثقافي.
(٣) الجنون كمرادف للمرض العقلي بحسب توصيفات الطب النفسي...